لماذا تستبعد هذه المجموعة بشاعة الحرب و الدمار

2-1- المعاملة بالمثل في التشريعات وما ابتدعته الحروب من عقوبات

عددت تشريعات بلاد الرافدين العقوبات المفروضة على مُلحِق الضرر بالغير ومنها فرض عقاب مماثل لما اقترفه، وهو العقاب الذي يعرف بقاعدة "العين بالعين والسن بالسن" وعلى الرغم من تلك القاعدة التي وردت في تشريع حمورابي، ليس لدينا دليل على تطبيقها، وقد يكون ذلك للإرهاب والردع تحاشياً لوقوع الضرر. وقد عرفنا تشريعات موازية ومتزامنة مع تشريع حمورابي، اقترحت تطبيق تعويض مالي يختلف باختلاف الضرر الحاصل، وفي ذلك تطور حضاري له أهمية بالغة سوف يتعرض إليه الفصل الخامس من الكتاب الأول.

ومما يؤسف له أن رسالة صادرة عن مملكة (ماري)، أشارت بالنسبة للمدعو (نافيسوم) المتهم خطأً بارتكاب جريمة، أن عائلة الضحية عمدت إلى قطع أذنيه وثقب أنفه وسلخ جلد رجليه، ثم جره ثلاثين مرة حول المدينة حتى موته، والرسالة التي نحن بصددها لم تشر إلى أي محاكمة سمحت بتطبيق العقاب.

أشرنا أعلاه أن لا إثبات لدينا بتطبيق العقوبات التي نصت عليها التشريعات، كثقب لسان المتهم بواسطة مسمار، أو كسر أسنان من يخالف العقد بواسطة اللوحة التي نقش عليها نص العقد، وسكب قار مغلي على رأس مستحق العقوبة. مثل هذه العقوبات التي لم يتم تطبيقها بصورة عامة مما يشير إلى توفر حدود إنسانية كانت ممكنة بالنسبة لمشاكل الحياة اليومية في مجتمع المدينة ولكن الحرب من جهتها لا تعرف الحدود، فهي تولد الحقد ويولد الحقد بدوره شعور الانتقام، حتى أن الموت وحده لم يكن كافياً للانتقام وكان لا بد من "الإحالة إلى العدم" وفق معتقدات تلك الفترة.

تفوقت الوثائق الآشورية بالتفنن بأشكال العنف الذي اشتهرت به وهي التي تضمنت معلومات غزيرة تهم هذا الموضوع، ومنها عرض المغلوبين من ذوي المراتب العالية الأميرية والملكية، في أقفاص مع كلاب وخنازير، أو جرهم وهم مكبلون في شوارع (نينوى) بعد سلخ جلدهم.

كما أنه بنتيجة الانتصار كان الملك الآشوري يأمر بأن تكدس رؤوس الأعداء والأيادي المبتورة وفق هرمٍ، كان الكتبة مرافقوا المعركة، يحصون أعدادها لتسجيلها في محفوظات "الأيام المجيدة".

لا بد من التوضيح بأن وسائل التعذيب والتشويه في المجال الحربي كانت نامية جداً وكان الهدف منها إرهاب الشعوب المُخْضَعَة وإبعادها عن التمرد، ينطبق ذلك على المدنيين وعلى الجنود.

وإذا ما ثارت مدينة، فقد كان الحاكم الآشوري لا يتأخر عن إحراقها بما فيها من نساء وأطفال وشيوخ، كما كان الرجال يشوَّهون أو يُعدمون في حال تعذّر تحويلهم إلى العبودية أو سبيهم ونقلهم إلى حيث يمكن الاستفادة منهم كيد عاملة قليلة الكلفة في المشاريع الكبرى.

ومن الأمثال التي نود أن نختتم بها هذه الإيضاحات حول الحقد والانتقام الذيْن كانا يتعديان الأحياء، لينطبقا على الأموات، يمكن تقديم مثل (آشور بانيبال)، وهو الملك الأكثر ثقافة ومعرفة، وهو الذي، بعد انتصاره على العاصمة (سوز)، عمد إلى نبش عظام ملوك (عيلام) ونقلهم كأسرى إلى آشور. نعلم أيضاً أن العيلاميين سلّموا جثة الأمير الكلداني "نابو - بل - سومّات" (Nabu - Bel - Summate) الذي حارب إلى جانبهم، محفوظة في الملح إلى مبعوثي ملك (آشور) وتمّ نقلها إلى (نينوى) حيث سيقطع رأسه عقاباً على الرغم من وفاته، وقد كتب (آشوربانيبال) بصدده: "رفضتُ دفن تلك الجثة، وبذلك جعلت لها الموت أكثر ضراوة" وأخيراً حين ثار ابنا حاكم مدينة (نِفُّر) "نابو - شوم - إيريش" (Nabu - Sum - Eresh) على الملك آشور بانيبال وعملا لمصلحة العيلاميين فقد أجبرهما على القيام أمام بوابة مدينة (نينوى) الرئيسية وأمام الجمهور، بطحن عظام والدهم. ومثل هذه العادة الشنيعة تمّ تبنيها أيضاً من قبل الملوك البابليين - الجدد وأشهرهم الملك (نبوخذ نصر) الثاني.

2-2- كيف تزامنت بشاعة الحروب مع بناء الحضارة

إنه لمن حسن الحظ، أن حروب التوسع وبناء الإمبراطوريات والعنف الذي رافقهما كانا متزامنين مع وجود فئات بعيدة عن الحروب، وهي فئات المفكرين والإداريين والمشرعين والمصلحين والخلاقين والمبدعين، وهم الذين بنوا فعلاً حضارة بلادهم في ممالك العالم القديم، وهم الذين بقيوا جنوداً مجهولين لم تصلنا إلا أسماء بعضهم، ونحن ننسب إلى الملوك ما حققه هؤلاء الحضاريون الذين لولاهم لكانت الممالك لا يتعدى دورها بشاعة الحروب.

وإذا ما اقتنع معنا القارئ الكريم بأن الفصل الثاني من هذا الكتاب كان يقصد منه جعله يرافقنا في كره ما أدّت إليه حروب الدمار، فإننا بسرور وبهجة نطلب منه مرافقتنا في كل ما عرفه العالم القديم من معالم حضارية حقيقية كان لها الفضل في نشر المعرفة والعلوم والتطلع إلى ما وراء المشاغل المادية للتوجه نحو حياة روحية تبني "بيوت الآلهة" تعبيراً عن شكرهم لإدارتهم تناغم سير الكون، كما تبني حياة اجتماعية تحقق العدالة للجميع وتحول دون ظلم القوي للضعيف - تدافع عن حق الأرملة واليتيم وتشرِّع لمجتمع حضاري يعمّه الرخاء والوفرة مما يتيح له التوجه نحو الإبداع الجمالي والخلق الأدبي وكذلك إنتاج تحف تعبر عن توقه إلى الأفضل والأجمل، ثم تمكينه من تعدّي حدوده سلمياً للتعرف على شعوب أخرى عن طريق التبادل الثقافي والتجاري.... كل ذلك أشارت إليه المقدمة العامة حينَ تعرضت للكتب الأربعة التي تشكل هذه المجموعة.

2-3- التناقض مع مثالية العصر البطولي

نحن نعلم جيداً أن الممالك لم تتوسع، والبلاد لم توحد والإمبراطوريات لم تبن إلا بواسطة الحروب، ولكن العصر البطولي السومري، شوقنا حين تصوّر فترة (مثالية) كنا نود أن تكون حقيقية عرفت السحر الذي ورثته عن قدرة الحكماء، كما عرفت مناقبية الفروسية، وعرفت الوساطة والتحكيم والاتفاقات الحبيّة لحل الخلافات وتجاوز الصعوبات وكذلك الاكتفاء بلقاء بطلين يتبارزان تحاشياً للحرب الجماعية.

وفي تناقض تام مع ذلك العصر البطولي، فإننا نقرأ كما أسلفنا أخبار ملوك يصفون معاركهم وانتصاراتهم على أعدائهم مفاخرين بالضراوة التي عاملوهم بها.

وإذا ما كان إخضاع المدن يقضي بتدميرها ومسح معابدها وأسر كهنتها وتحويلها إلى "العدم" فإن تحويل البشر إلى العدم كانت له أساليبه في بلاد الرافدين، حين كانت تترك جثة العدو لكي تلتهمها وحوش البرية أو طيور السماء أو الكلاب وقد أشرنا أعلاه إلى نبش القبور وعرض عظام آباء الملوك والحكام المغلوبين والتوصل إلى طحنها وفي ذلك قمة التحويل إلى "العدم".

2-4- مفهوم الموت والإحالة إلى العدم في بلاد الرافدين

لكي نفهم مثل هذه الضراوة لا بد لنا من التذكير بما كان يعنيه الموت وما بعد الموت بالنسبة لمعتقدات بلاد الرافدين وبخاصة الموت الذي هو موت الحروب وهو ليس الموت الطبيعي الذي يفرضه الإله على البشر.

لا بد من التذكير هنا بأن الموت كان بالنسبة لسومر وأكاد وآشور يعني "العودة إلى الصلصال" أو "العودة إلى العَفَر"، ومما يلفت النظر هنا، هو استعمال تعبير "انتصب" أي (إزّوزو) الأكادية من أجل خلق البشر، ويستعمل التعبير نفسه من أجل إقامة تمثال، ويعني ذلك، التفريق بين الوضعية العمودية للبشر الأحياء أو التمثال المنتصب والوضعية الأفقية في الطين أو العفر للبشر الأموات.

ويعني ذلك أيضاً التوازي بين البشري الحي والتمثال المنتصب، وأبعد من ذلك، فإن التعبير السومري "تود" (Tud)[1] المستعمل من أجل الولادة ينطبق في الوقت نفسه على صنع تمثال وإقامته أي ولادته.

والعكس صحيح فالبشري الحي يمكن تشبيهه بالتمثال المنتصب حتى أن موت البشري كان يتم الشعور به وكأنه تمثال كُسر أو حطّم وتناثرت أجزاؤه على الأرض، لذا فمن اللعنات التي استعملها (حمورابي) في خاتمة تشريعه نقرأ ما يلي:

".... وليعمد الإله "نرجال" (Nergal)[2] بسلاحه الفتاك إلى تحطيم أطرافه وكأنه تمثال من الآجر"[3].

يعني ذلك أن التحطيم يؤدي إلى تفكيك هيكله العظمي وتناثره كما يلتقي ذلك مع لعنة وردت في إحدى اتفاقيات "أسرحدّون" (Assarhaddon) (669-680) ق.م، مع أحد تابعيه يعلن فيها:

---

[1]- تود (Tud):فعل الولادة ومنه(Nin – Tu) سيدة الولادة.

[2]- نرجال (Nergal): إله العالم السفلي ومعروف تحت تسمية (ايرّا).

[3]- الفقرة (R38) من خاتمة التشريع.

"ولتفرق عظامه إلى الأبد

بحيث لا يمكن مقاربتها فيما بينها".

2-5- معنى تشتيت عظام الأموات

يمكن القول أن تشتيت العظام أو "إحالتها إلى العدم" هو أسوأ ما يمكن أن يحدث لبشري بعد موته، يوازي ذلك من لم يتم دفن جثته التي بقيت عرضة لطيور السماء أو وحوش البرية. ونحن نعلم من نهاية استجواب (جلجامش) لشبح (أنكيدو) عن مصير من تركت جثته في الصحراء، أن جواب (أنكيدو) أوضح لنا أن "شبحه لا يعرف الراحة"[1] ونعرف أيضاً أن الذي لم يدفن، ومن لا يعرف شبحه الراحة، يتحول إلى شبح عدواني هائم ويشكل خطراً على أفراد عائلته من الأحياء.

ففي اللعنات المرافقة لعلامات الحدود نقرأ أيضاً:

"... بحيث لا تعرف جثته الدفن وألا يتمكن

شبحه من الاجتماع بأشباح أفراد عائلته.".

أشباح العائلة وأشباح الأسلاف، كانت لهم أهمية إذن، في السهر على وحدة العائلة من الأحياء وحمايتهم ومساعدتهم شرط تلقي الأشباح الطقوس والتقدمات المرتبطة بمدافنهم وبتماثيلهم.

يساعدنا كل ذلك على اعتبار أن الحياة والموت في بلاد الرافدين، والاستقرار في تربة البلاد بعد الموت أي عدم الموت في بلد غريب، وكذلك تلقي تقدمات وطقوس الأحياء كان يعني استمرار الصلة بين الأحياء وأشباح أسلافهم، مما يشكل دورة واحدة يجب ألا تنقطع استمراريتها وذلك ما تقصّدت به الحروب إبطال هذه الاستمرارية تثبيتاً لنصر تمت حيازته.

2-6- لوحات من سومر وأكاد وآشور تعبر عن بشاعة الحروب

نقدم فيما يلي عدداً من اللوحات التي تشير إلى التجهيزات الحربية وتطورها في العالم القديم، عبر مراحل الحكم السومري والأكادي البابلي والآشوري في بلاد الرافدين، مشتملة على مشاهد المعارك وحصار المدن للاحتلال أو لقمع التمرد.

الصور تتكلم بنفسها عن مصير الأسرى السجناء والمتمردين، كما ترمز إلى الهجرة أو التهجير ونقل عدد من السكان إلى مختلف المناطق التي يحكمها المنتصر.

---

[1]- اللوحة 12 من ملحمة جلجامش من نسخة (نينوى).

تسع لوحات تروي وحدها ما عرفته الحرب والتوسّع وبناء الإمبراطوريات في بلاد الرافدين:

- **سومر و الحرب:**

A - (أ)- الإله (نينجيرسو) والأعداء الملك (إياناتوم) والحرب.

B - (ب) - تفصيل عن نصب العقبان.

- **أكاد والحرب:**

C - (ج) - (نرم سين) والحرب.

D - (د) – إمبراطورية أكاد والأعداء.

- **آشور و الحرب:**

E - (هـ) - استعراض جيش آشور.

F - (و) - الاستيلاء على المدن وإحراقها.

G - (ز) - حصار المدن و دكّ الأسوار.

H - (ح) - الحرب وسياسة التهجير.

I - (ط) - تحطيم تمثال إله العدو.

سـومر والحـرب أ

مركبة حربية سومرية عن شعار أور
(الألف الثالث ق.م)

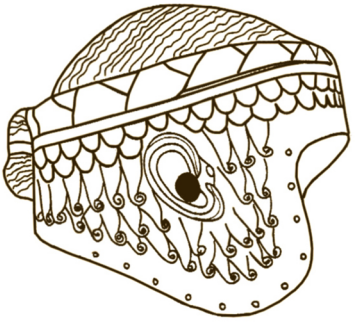

خوذة الملك ميسكالامدوج الذهبية
(الألف الثالث ق.م)

الإله نينجيرسو يقضي على الأعداء
سجناء شبكته

الملك ايانانوم على رأس جنوده
عن نصب العقبان (2450) ق.م

سـومر والحـرب ب

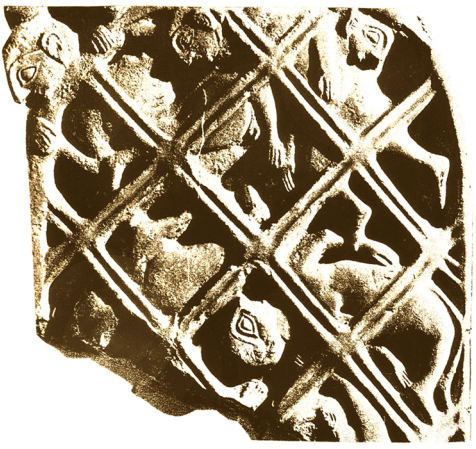

تفصيل عن نصب العقبان

اَكـاد والحـرب ج

حرب نرم-سين على الجبل

رأس ملك أكادي

اَكـاد والحـرب د

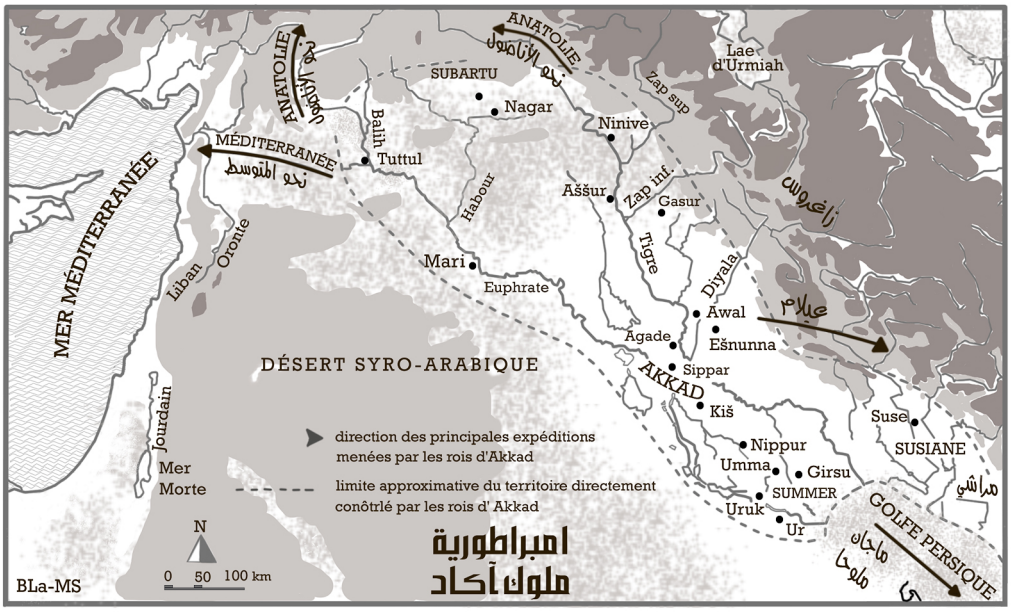

امبراطورية ملـوك آكاد (التوسع نحو المتوسط)

نقش بارز يمثل حمورابي
القرن الثامن عشـــر ق.م

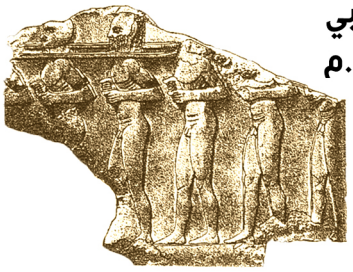

نصب تذكاري أكادي
رتل سجناء
النصف الثاني من الألف الثالث

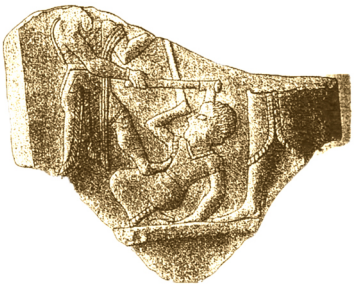

الملك شمسي-آدو
يقضي على عدو من قابرا
القرن الثامن عشر ق.م

آشـور والحـرب هـ

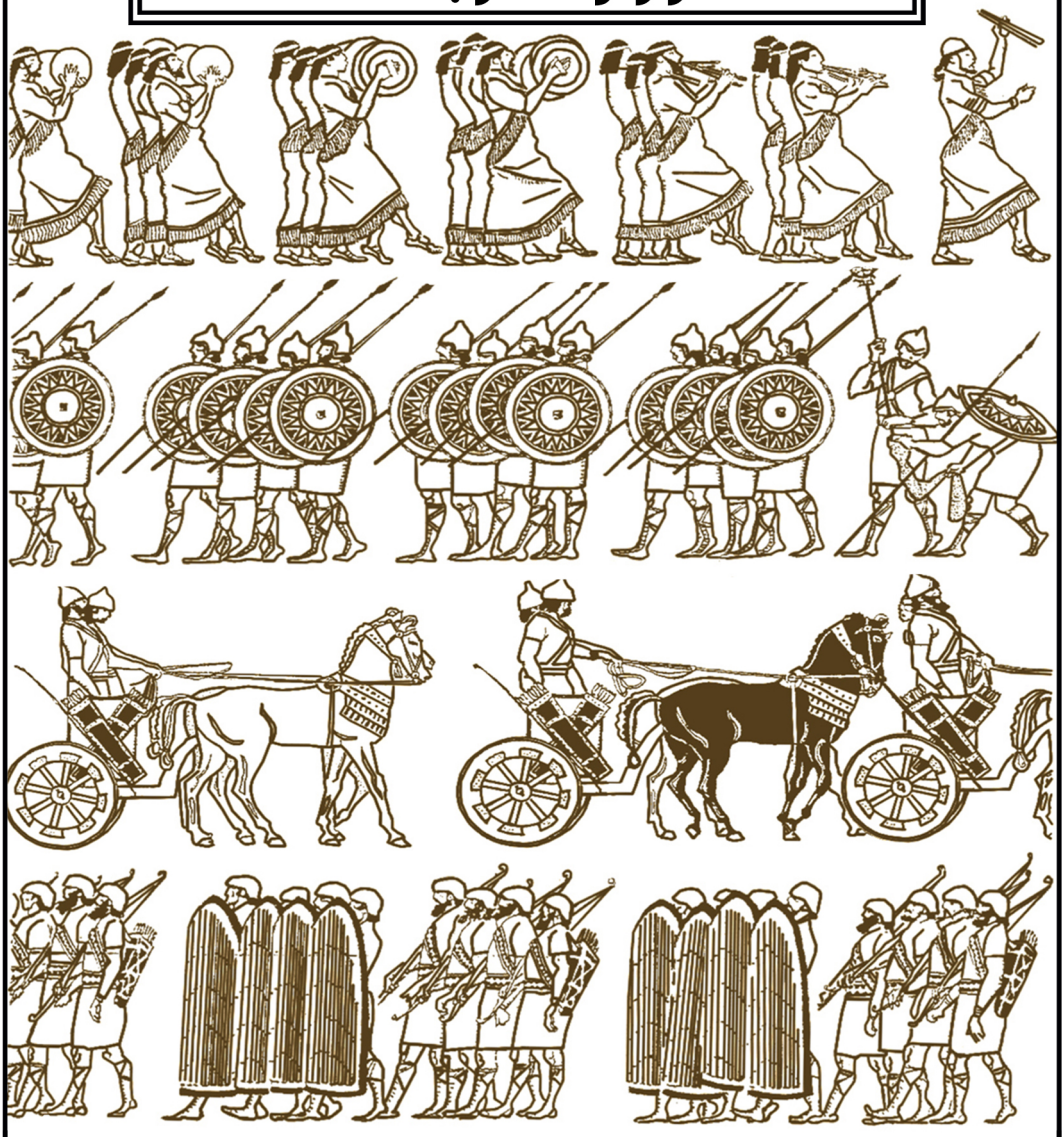

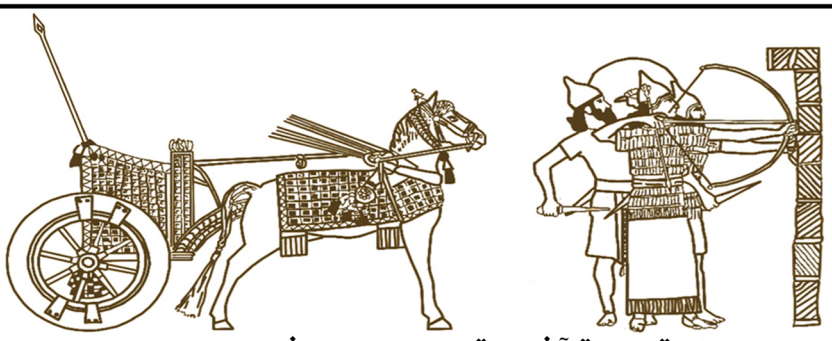

مركبة حربية آشورية وجهازها البشري المحارب

آشـور والحـرب و

سياسة تهجير السكان خلال حكم الأمبراطورية الآشورية

الاستيلاء على مدينة وإحراقها

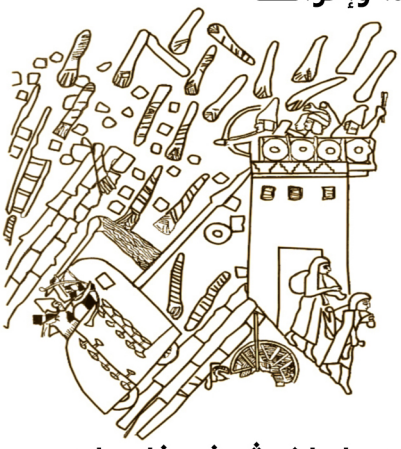

حصار لخيش في فلسطين

الاستيلاء على مدينة في عيلام وتهجير الأهالي

جثث عيلاميين تطفو على سطح الماء

قوَّاسان وكبش دك

جنديان آشوريان يستعملان المقلاع

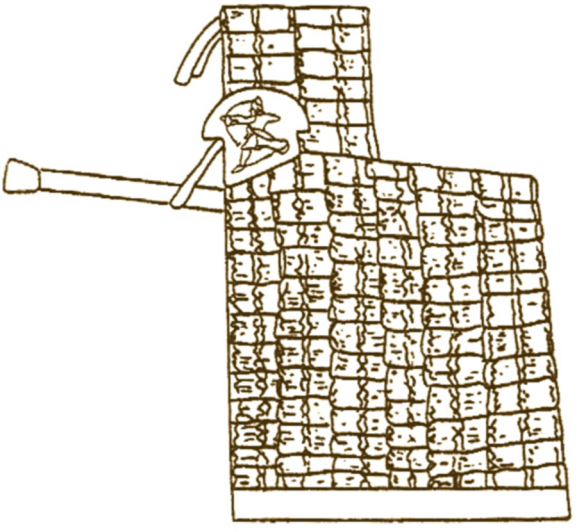

برج حصار مزوَّد بكبش دكّ الأسوار

اَشـور والحرب ح

الحـرب وسياسة التهجير

سياسة تهجير السكان خلال حكم الأمبراطورية الآشورية

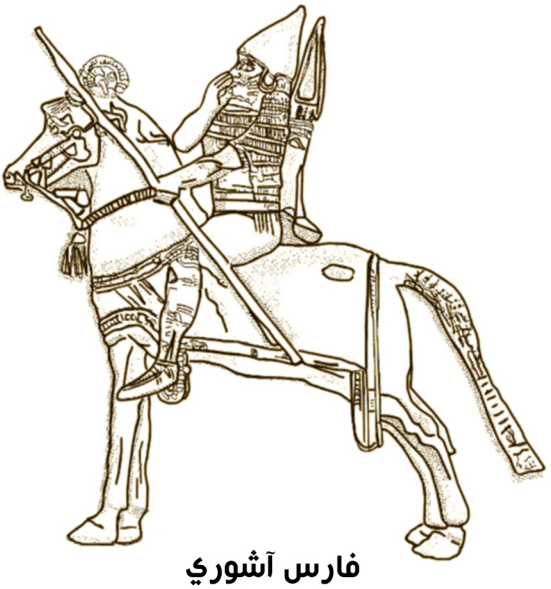

فارس آشوري

تهجير عائلة عيلامية يقودها حندي آشوري

اَشـور والحـرب ط

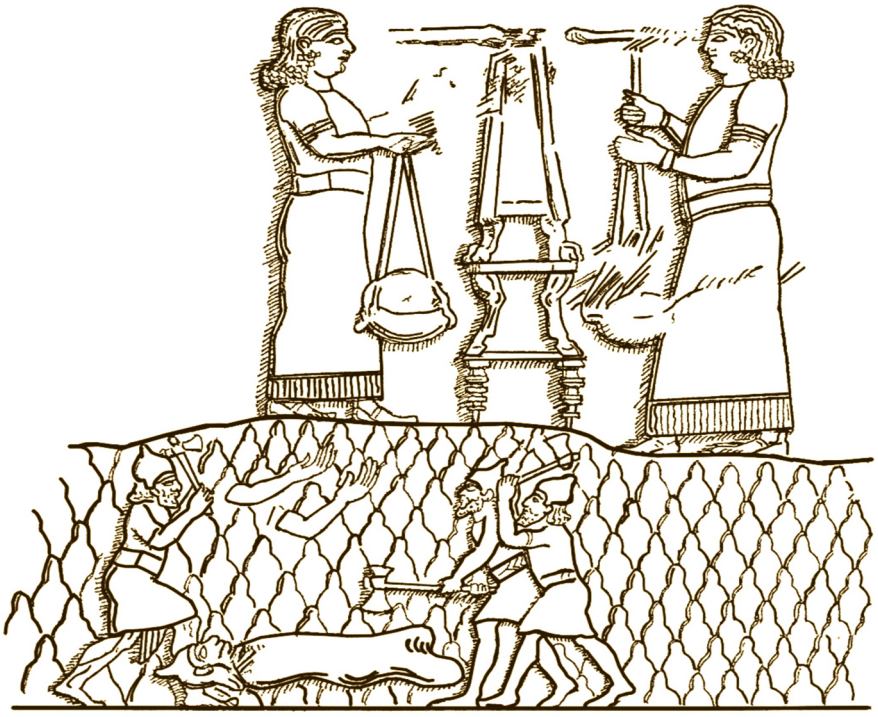

تحطيم تمثال إله العدو ووزن أجزائه

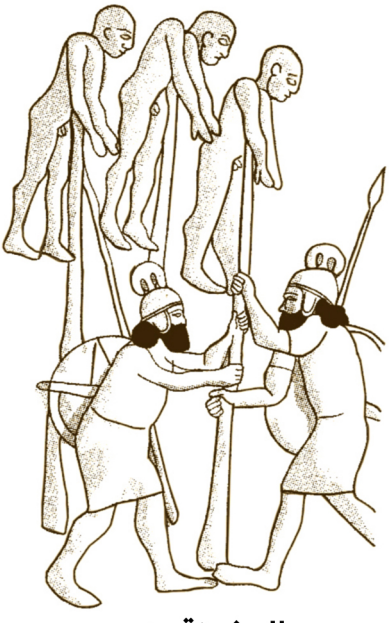

المخوزقون

نينوى - القرن السابع

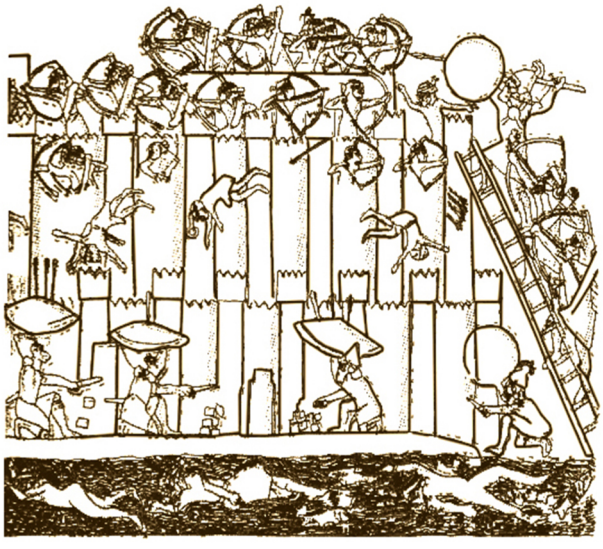

حصار مدينة عيلامية

حملة آشور بانيبال